مقياس: النظريات الدلالية	المحاضرة 02	الأستاذ: محمد فارح

الجهود الدلالية العربية

إن الجهود العربية في علم اللغة عموما والدرس الدلالي خصوصا جهود جبارة، لا يمكن لأحد من العرفين باللسانيات وعلومها إنكارها، وإن هذه الجهود مبثوثة في كتب السابقين واللاحقين، وفي هذا الباب سنكتفي بالجهود الدلالية لأحد أعلام الدرس اللغوي والبلاغي التراثي وهو الإمام عبد القاهر الجرجاني، كما سنتحدث عن جهود المحدثين مقتصر في ذلك بأحد أعلام الدرس اللساني الحديث وهو تمام حسان.

أولا-عبد القاهر الجرجاني:

تتمحور الجهود الدلالية لعبد القاهر الجرجاني من خلال نظرته العلمية التي بلورها في نظرية النظم، والتي خصّ دراستها في مؤلفه المشهور "دلائل الإعجاز" ويرى أن النظم ليس صنعة تقتصر في الألفاظ وحدها ولا في المعاني وحدها وإنما يتم بدراسة صلاحية اللفظ في موقع يكون معنى الكلام في ترتيب ويتم ذلك بما قبلها وما بعدها في موقع ما، ولا أسبقية للفظ أولا أو المعنى أولا وإنما يتم الالتحام في لحظة واحدة، فصور المعنى تتشكل وتتباين في سياق فني، لكن تتحول فيه وسائل التصوير الفني إلى استعارة وتشبيه وتقحم فكرة (معنى المعنى) لهذا التركيب بما لها من تحول في مجال اللغة على المستوى النقدي والإبداعي:

فالكلام على ضربين، ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد وبالانطلاق عن عمر فقلت: عمر منطلق وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل.

ومن الأمثلة على ذلك:

"إذا قلت: هو كثير رماد القدر، وقلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجهه ظاهره، ثم يعقل السامع ومن ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك، كمعرفتك، من كثير رماد القدر، أنه مضياف، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها ما يكفيها أمرها"

ويفصل الجرجاني في مسألة اللفظ والمعني، فيرى أن المزية ليست للفظ دون المعنى ولا المعنى دون اللفظ وإنما المزية كلها للنظم يقول: "اعلم أنَّ ههنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أنَّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد. وهذا علم شريف، وأصل عظيم".

ومع ذلك فالجرجاني يعطي الأسبقية للمعاني في وجودها النفسي، ويعلل ذلك بقوله: لو كانت المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها لكان محالاً أن تتغيّر المعاني والألفاظ بحالها لم تزل على ترتيبها فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغيّر من غير أن تتغيّر الألفاظ وتزول عن أماكنها علمنا أن الألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة"، ومن المسائل المتعلقة بالدراسة الدلالية التي تناولها الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز نجد:

1-المبتدأ (المسند إليه):

أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن المبتدأ إنما جيء به من أجل أن يُخْبَر عنه، وليس لأنه ابتدئ به الكلام، يقول: "إن المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولا، ولا كان الخبر خبرا لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ لأنه مسند إليه ومُثْبَتٌ له المعنى، والخبر خبرا لأنه مسند ومُثْبَتٌ به المعنى"، وهو تعريف يخالف فيه من سبقه من اللغوين الذين يرون أنه كل اسم ابتدئ به الكلام، وهذا يدل على أن الجرجاني نظر إليه من ناحية المعنى الوظيفي، لا من جهة اللفظ، ويستدل على ذلك أنه لو كان المبتدأ مبتدأ لأنه في اللفظ مقدم مبدوء به، ولو

كان ذلك صحيحاً، لكان ينبغي أن يخرج المبتدأ عن كونه مبتدأً في أحوال أخرى، نحو قولهم: (منطلقٌ زيد)، فضلاً عن استحالة القول: إن هناك خبراً مقدما في اللفظ والنية فيه التأخير. فالجرجاني يرى أن تقدم الخبر على المبتدأ لا يزيل عليه وصفه، كونه المسند إليه، عكس القول الأول القائل مبتدأ كونه ابتدئ به.

2-الخبر: المسند:

ويعرفه الجرجاني على أنه الجزء الثاني من الجملة الابتدائية، يقول: "اعلم أن خبر المبتدأ في قولك: زيد ضارب، وعمرو ذاهب، هو الثاني من الجزأين"، ثم يزيد في تعريفه له بقوله: إن الخبر خبر لأنه مسند ومثُبَتٌ به المعنى، فالجملة الإسنادية تتشكل دلالتها من العلاقة الإسنادية بين المسند والمسند إليه، ويتضح جليا أن الجرجاني جعل الخبر (المسند) إليه محتوى الخطاب الإبلاغي (الإعلامي)، وهو ما يقتضي جملة من القواعد الدلالية التي توفق بين المفهوم المجرد والمادي للمعنى الذي يؤديه الخطاب اللغوي، ففي (الخبر) يتحقق المفهوم المجرد للمحتوى الدلالي، انطلاقا من أن الجملة الخبرية – بوصفها وحدة اتصال – يجب أن تخبر السامع ما يعد بالنسبة إليه جديدا في الموقف الكلامي الراهن، وهو ما يحققه (المسند) الذي يظهر محمولا في البنية الشكلية للجمل.

ويبين الجرجاني دلالة أن يكون الخبر بالاسم ودلالة أن يأتي بالفعل فيقول: إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء.

ويمثل لنا الجرجاني لذلك فيقول: فإذا قلت زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق له فعلا دون أن يتجدد، فهو كقولك زيد طويل، وعمر قصير. أما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت زيد ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله.

3-الكناية:

يستعمل الجرجاني الكناية بعدها آلية من آليات تثبيت المعنى وترسيخه، ومدار الحديث عنها من وجهة دلالية يقول: أن يريد المتكلم أن يثبت معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به وإليه ويجعله دليلا عليه، ففي المثال السابق "كثير الرماد" فالمتكلم لم يستعمل اللفظ الموضوع في اللغة لإيصال مراده وهو أنه كريم جواد، وطويل النجاد أنه طويل القامة، ونؤوم الضحى أنها مترفة مخدومة فلم يستعمل اللفظ على جهة الحقيقة ولجأ إلى استعمال المعنى وأومأ به.

4-الاستعارة:

ويستعملها الجرجاني في سياق ذاته في حديثه عن الكناية كونهما آليتين لإثبات المعنى يقول: " إنك تثبت بما معني لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ، بيان ذلك أنك لا تقول رأيت أسد إلا وغرضك أن تثبت للرجل أنه مساو للأسد في شجاعته وجرأته.... ثم نعلم أن السامع إذا عقل هذا المعنى لم يعقله من لفظ أسد، وإنما عقله من معناه"، فالسامع لا يمعن النظر إلا في معنى اللفظ، كونه هو المقصود، فانزاحت اللغة وخرجت عن مألوفها إلى معنى أقوى من الاستعمال المباشر لها.

5-باب القصر والاختصاص:

ومن الأبواب التي تحدث فيها الجرجاني من وجهة الدلالة باب القصر والاختصاص يقول: "وهاهنا كلام ينبغي أت تعلمه، إلا أني أكتب لك من قبله مسألة لأن فيها عونا عليه، قوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ في تقديم اسم الله عز وجل معنى خلاف ما يكون لو أخر، وإنما يبين لك ذلك إذا اعتبرت الحكم في "ما" و"إلا"، وحصلت الفرق بين أن تقول: ما ضرب زيدا إلا عمرو، وبين قولك: ما ضرب عمرٌو إلا زيدًا.

والفرق بينهما أنك إذا قلت: ما ضرب زيدًا إلا عمرو، فقدمت المنصوب كان الغرض بيان الضارب من هو، والإخبار بأنه عمر خاصة، دون غيره، وإذا قلت: ما ضرب عمرٌو إلا زيدًا، فقدمت المرفوع كان الغرب بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه زيد خاصة دن غيره.

وعليه فإن الغرض من تقديم لفظ الجلالة في الآية الكريمة ليس تقديما من أجل الزينة وإنما كونه يحمل وجها دلاليا وهو أن يبين الخاشون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخر لفظ الجلالة في الذكر وقدم العلماء لصار الغرض بيان المخشَّي من هو، والاخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مصورة على العلماء، بل كان المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضا.

ثانيا–الجهود الدلالية عند تمام حسان:

يعد تمام حسان من الباحثين المحدثين الذين كان لهم الأثر البالغ على الدرس اللساني عموما وعلى الدرس الدلالي على وجه الخصوص، فقد حاول من خلال أعماله أن يبعث رؤية جديدة في البحث اللغوي وهي رؤية شمولية متكاملة، وأن يحلحل الدرس اللغوي الحديث من مكانه، فلم تكن "نظريات الدكتور تمام حسان ونظراته في اللغة من ذلك النوع الهادئ العابر الذي يعلن على الملأ فيمر مرور الكرام، ويقف عند هذا الحد وكفى، بل كانت تبعث في العقل اللغوي فضل تأمل، وإعمال نظر وطول تدبر". فأعادت أبحاثه توجيه كثير من الآراء، وفصلت في مسائل متعددة، وأسهب تمام حسان في الدرس اللساني الحديث وفي أجزائه.

ومن أهم المسائل التي عالجها تمام حسان من خلال أبحاثه:

1–قضية المبنى والمعنى:

يفتتح تمام حسان كتابه اللغة العربية معناها ومبناها بإشارة لطيفة وهي أن الموضوع الأساس لكتابه هو قضية المعنى، فيقول: "كل دراسة لغوية لا في الفصحى فقط بل في كل لغة من لغات العالم لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى، وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة، وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى،

وهذا النوع من النظر إلى المشكلة يمتد من الأصوات إلى الصرف إلى النحو إلى المعجم، إلى الدلالة." فالموضوع الأساس الذي يجب أن يعالجه الكتاب حسب الباحث يتمحور حول مسألة المعنى، وما تعلق به من حيث ارتباطه باللفظ وأساليب التعبير.

ومن المسائل المتعلقة بهذه القضية هي قضية اللحن، والتي أشار إليها الباحث في كتابه أنها السبب الرئيس الذي أدى إلى نشأة الدراسات اللغوية المختلفة، والخشية من دخول اللحن على لغة العرب ثم دخوله إلى القرآن الكريم. وذهب إلى أنها ظاهرة متعلقة بأخطاء صوتية ونحوية ومعجمية وليست مقصورة على الجانب النحوي لوحده.

ويرى تمام حسان أن مسألة المعنى عند القدماء هي مسألة هامشية، منتقدا الدراسات اللغوية كونها توجهت إلى الاهتمام بالمبنى على حساب المعنى، حتى تلك التي عالجها أصحابها مدعين في ذلك اهتمامهم بالمعنى، يقول: "قامت دراسة "علم المعاني" في مرحلة متأخرة عن ذلك في تاريخ الثقافة العربية كانت طلائع القول في هذه الدراسة كما كانت في بداية دراسة النحو قبلها تناولا للمبنى المستعمل على مستوى الجملة لكن لا على مستوى الجزء التحليلي كما في الصرف ولا على مستوى الباب المفرد كما في النحو".

لقد تأثر تمام حسان كثيرا بأستاذه فيرث، وأخذ عنه كثيرا من مبادئ علم اللسانيات الحديث ويرى تمام حسان أن دور المعنى هو "المعنى التام أو الشامل للعناصر الاجتماعية التي يتكون منها المقام" ويعني هذا أن المعنى له دور متعلق بالمقام، والمعنى عنده ينقسم إلى:

-**المعنى الوظيفي:** ويشمل النظام الصوتي والصرفي والنحوي.

-**المعنى المعجمي.**

-**المعنى الدلالي أو الاجتماعي.**

وأشار الباحث حافظ إسماعيلي علوي أن تمام حسان بنى تصوره للنظام النحوي على أساسين:

-التمييز بين اللسان والكلام.

-تصوره للنظام اللغوي تصورا يجعل هذا النظام (صوتيا أو صرفيا أو نحويا) يتألف من مجموعة من المعاني والمباني.

وأقسام المعنى الدلالي عنده:

2-الدلالة الصوتية:

تحدث تمام حسان على علم الأصوات وأن القدماء بالرغم من الصعوبات التي كانت تواجههم واستخدام الملاحظة وحدها استطاعوا الوصول إلى وصف دقيق للأصوات العربية دون أن يمتلكوا الوسائل الآلية التي يستخدمها المحدثون. كما ذهب إلى الاعتقاد بأن دراسة الأصوات مقدمة لابد منها لدراسة اللغة، بل إن دراسة النظام الصوتي ضروري لمن أراد دراسة النظام الصرفي. فالباحث يرى أهمية دراسة علم الأصوات حتى يتمكن الدراس من البلوغ إلى المستويات الأخرى وهو على علم بالقاعدة الأساسة للغة وهي الصوت. وساق لنا كثيرا من صفات الأصوات.

3-الدلالة الصرفية:

تحدث الباحث كذلك على الدلالة الصرفية مستفتحا حديثه حول النظام الصرفي والذي يتشكل حسبه من:

1-مجموعة من المعاني الصرفية التي يرجع بعضها إلى تقسيم الكلم ويعود بعضها الآخر إلى تصريف الصيغ.

2-طائفة من المباني بعضها صيغ مجردة وبعضها لواصق وبعضها زوائد وبعضها مباني وأدوات وقلنا إنه قد يدل على المبنى دلالة عدمية بالحذف أو الاستتار حيث تغني القرينة في الحالتين عن الذكر.

3-طائفة من العلاقات العضوية الإيجابية وهي وجوه الارتباط بين المباني وطائفة أخرى من القيم الخلافية أو المقابلات وهي وجوه الاختلاف بين هذه المباني.

ومن الأمثلة التي ساقها الباحث نجد:

العلامة	التقسيم		التصريف	
	المعنى	المبنى	المعنى	المبنى
ضرب	الفعلية والمضي	صيغة فعل	الإسناد للغائب	الاستتار
يضرب	الفعلية والمضارعة	صيغة يفعل	الإسناد للغائب	الاستتار
اضرب	الفعلية والأمرية	صيغة افعل	الإسناد للمخاطب	الاستتار
هو	الإضمار	صورة الضمير	التذكير والإفراد والغيبية	صورة ضمير الرفع المنفصل
هي	الإضمار	صورة الضمير	التأنيث والإفراد والغيبية	صورة ضمير الرفع المنفصل
الكتاب	الاسمية	الاسم فعال	التعريف	أل على إطلاقها

3-الدلالة النحوية:

أسس تمام حسان للدلالة النحوية على مبدأ التعليق الذي أخذه من عبد القاهر الجرجاني، ويرى بأن النظام النحوي ينبني على:

-طائفة من المعاني النحوية العامة التي يسمونها معاني الجمل أو الأساليب.

-مجموعة من المعاني الخاصة أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة...

-مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها.

-ما يقدمه علما الصوتيات والصرف لعلم النحو من قرائن صوتية أو صرفية كالحركات والحروف ومباني التقسيم ومباني التصريف وما اصطلح من قبل على تسميته مباني القرائن اللفظة.

-القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفراده.

ثم يورد لنا تمام حسان حول هذه النقاط تمثلا فيقول:

يقول ابن مالك:

وتاء تأنيث تلي الماضي إذا كان لأنثى كأبت هند الأذى

هذا كلام يفهم من وجهين أحدها صرفي والآخر نحوي، ويمكن أن نمثل له كالآتي:

المعنى	المبنى	العلامة
التأنيث	التاء على إطلاقها	التاء في أبت

التأنيث معنى صرفي من معاني التصريف، ويمكن فهم البيت من زاوية النحو وهي زاوية العلاقات السياقية:

المعنى	المبنى	العلامة
المطابقة في التأنيث بين الفعل والفاعل	التاء على إطلاقها	التاء في أبت

4-السياق:

إن الدلالة عند تمام حسان تتعلق بفكرتين مهمتين ذكرهما في كتابه وهما: المقام والمقال إذ يقول: "لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"

فالعرب القدماء اهتموا بفكرة المقام والمقال، وهذا الاهتمام جعل دراسة اللغة عندهم دراسة دقيقة، إذا إن فكرة المقام لها أهمية بالغة وقد أصبحت في العصر الحديث "المركز الذي يدور عليه علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر وهو الأساس الذي ينبني عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى."

ويرى أن ظاهر النص يحتاج إلى الوظائف (المعنى الوظيفي) كما يحتاج إلى العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها (المعنى المعجمي) وبهما يكون معنى المقال، وانفراد العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها بالوجود يجعل الأمر بحاجة إلى معنى (المقام) أو المعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال المعنى الدلالي.